من أعتقال العقل وغفلة الساسة
إلى تعثر النهضة وتأجيل التحديث

أ. د. محمد العربي ولد خليفة
(جامعي)

1. تقدّم وتأخّر: وجهان للمقارنة
2. وباء الشعوذة والإسرائيليات
3. إسلام البرهان حاضن العلم والعرفان
4. حرّية الفكر والإنسان وجواسيس السلطان
5. أعراض الانحطاط أو مرض العصر وعلاجه بالداروينية الاجتماعية
6. هل كان العلماء المسلمون مجرّد حرّاس لمكتبات الأوّلين
7. القوميون وأنصار الخلافة: من الغفلة إلى الخيبة
8. الإجهاض السافر للنهضة: الحالتان المصرية والجزائرية
9. الإجهاض الثالث وحرب المغفلين في الخليج
10. خطوة أخرى خاسرة إلى الوراء
11. 11 سبتمبر: بيرل هاربر أمريكا في منطقة هشّة
12. جزائر التسعينيات: مخبر وفرجة
13. الحمل الكاذب والمجموع الصفري

14. الخيبة السابعة
15. المعضلة وشفرة الحل

لماذا تأخّر العرب والمسلمون وتقدّم غيرهم؟ لسنا أول من طرح هذا السؤال، ولن نكون بالتأكيد –والحال على ما هو عليه– آخر من يبحث عن جواب، قد يضاف إلى قائمة طويلة تجمعت فيها خلال القرنيْن الماضيين مقاربات التوصيف والتشخيص والغضب والرثاء، واقتراح وصفات العلاج والشفاء، وشروط النهضة وإعادة التأسيس والبناء.

1. تقدم وتأخر: وجهان للمقارنة

من الواضح أن كلمة تأخر تتضمن في مجمل تلك التوصيفات والوصفات وجهين من المقارنة، **أولهما** مقارنة مع حقبة حضارية زاهرة انطلقت من دولة المدينة بقيادة رسولنا الأعظم محمد (ρ) وتحت لواء القرآن وتواصلت في تصاعد لحوالي خمسة قرون، في تلك الحقبة الزاهرة أدركت نسبة كبيرة من النخب المفكرة والعالمة، ومن أهل الذكر، أن معجزة الإسلام هي القرآن وبيانه وحثه على فهم الكون ونظامه، وليس الخوارق التي تلغي قانون السببّية، أو تبطل دوران العلة مع المعلول في مصطلح علماء أصول الفقه.

والوجه الثاني مقارنة مع واقع الحال عندنا، بالنظر إلى حال غيرنا الذي نخصص له الجزء الأخير من هذه السطور بهدف تقديم وجهة نظر تنأى عن الرثاء والبكاء، وخطابات تبرئة الذمّة وقصائد استنهاض الهمة، وتتلمس الإجابة عن السؤال التالي: كيف تقدموا ولماذا تأخرنا؟ كما تبدو في سياسة

الفكر وفكر السياسة، وما حدث بين الفكر والسياسة من تآلف وقطيعة، وفق فرضية تتبعنا مدى صدقيتها في مواضع أخرى، ومؤداها أن التقدم والتأخر، النهضة والتخلف، لا تحدث في التوّ وبالصدفة، بل هي أشبه بمرض السيدا الذي يُفقد الجسم مناعته تدريجيا، مع فارق أنه من الصّعب معرفة تاريخ الإصابة بالتحديد وموضعها وسببها الأول.

لا يرجع عقد مثل تلك المقارنات إلى إرهاصات ما يسمى بالنهضة في عهد محمد علي حاكم مصر، أو محاولات الأمير عبد القادر التي أجهضها الاحتلال الاستيطاني في المهد، بل ترجع إلى زمن أبعد من ذلك، سبق الاحتضار الطويل للخلافة العثمانية، عندما تحولت دار الإسلام من مجال حضاري مفتوح على أقاليمه مشرقا ومغربا، وعلى ثقافات عصره، عندما تحّول عالم المسلمين والعرب إلى إمارات وسلطنات، وقبائل متصارعة، ولا تتورع عن التحالف مع قوى أخرى مما كان يسمى "دار الكفر" لتسوية الخلافات بين الأسر الحاكمة، وداخل تلك الأسر نفسها. لقد استمر الصراع حول الإمامة والسياسة منذ مؤتمر سقيفة بني ساعدة وإلى يوم الناس هذا، إما بصورة كامنة، وإما انفجارية، وإما في صورة انشطارات مذهبية وسياسية دموية.

لم يكن خافيا على نخب تتناقص عدديا ويقل تأثيرها اجتماعيا وثقافيا وسياسيا، وتتعرض للعزل والإقصاء والاتهام بالردّة والتآمر، لم يكن خافيا على تلك النخب أن العالم العربي والإسلامي من أقصاه إلى أدناه يدخل في غيبوبة مهلكة، وفي غفلة تامة عما يحدث في عالم القرن الخامس عشر. فقد خسر ذلك العالم الكثير من تراثه على يد جحافل التتار والمغول القادمة من الشرق،

وأنهكته حروب عالمية شنها تكتل دولي تحت راية المسيح المظلوم، شاركت فيها جيوش من معظم بلدان القارة الأوروبية.

ويمكن أن نتساءل اليوم هل وضعت تلك الحروب أوزارها؟ وهل جرى حوار حضارات بدون ذاكرة مثقلة بماضي يتحكم في العلاقات الصراعية مع شعوب المنطقة؟ ومتى يكف ذلك التكتل عن التحكم في مستقبلها؟.

لم يكن بالإمكان وقف ذلك الانحدار المتسارع والتدهور الحضاري المتواصل، لقد غرقت شعوب المنطقة وقياداتها الضعيفة في أوحال الركود والفتن والانحطاط العقلي والروحي، وصدرت أوامر بالقبض على العقل وغلق باب الاجتهاد ودفن مفاتيحه تحت ركام من الحشو والاجترار.

رافق الغفلة والاستغفال تلويث واسع النطاق للروحانية الإسلامية الراقية، بالشعوذة وأوهام السحّر التي تلغي قوانين الطبيعة وسنن الكون بما يشبه العودة إلى الوثنية والتنّكر الصريح لما جاء في آي الذكر الحكيم: ﴿**وكأي من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم معرضون**﴾ (يونس 105). ﴿**أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها وآذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾ (الحجّ 46)، لقد جرّد القرآن الكريم الأجرام السماوية والبشر والشجر والحجر من أي تأثير سحري وسلطة خفية على العقل والروح، ولكن التخلف أعاد لها ما ليس لها من نفوذ وسلطان.

2. وباء الشعوذة والإسرائيليات

استشرى ذلك التأخر وساعد عليه، تسرّب طوفان هائل من الإسرائيليات المُنحّطة التي تزعم تفسير وتفصيل ما جاء مجملا في القرآن والسنّة والتطاول على ما هو في حكم الغيب الذي لم يدعيه أبدا المصطفى (ρ) وهو يتلقى الوحي من العلي القدير ﴿**قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضررا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يومنون**﴾ (الأعراف 188)، ﴿**ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنيّ ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذن لمن الظالمين**﴾ (هود آية 31).

انتشرت الخرافات التلمودية المنسوبة زورا وبهتانا إلى روايات منحولة عن خاتم الأنبياء وصحبه، وتمكنت فلول كهان إسرائيل المهزومين أمام الرسالة المحمدية من الانتقام بأثر رجعي، وأوهموا الكثير من العامة والخاصة بأنه لا حياة قبل الموت وأن المستقبل يبدأ من القبر وأن ما قبله لا جدوى منه، على النقيض تماما من صريح كتاب الله ﴿**وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يُرى**﴾ (سورة النجم 39–40) فلا يمكن مساءلة الإنسان ومجازاته بالثواب والعقاب في الآخرة إذا لم يُقيّم سعيه بمدى تقواه وأفعاله في الحياة الدنيا.

تبنّى أغبياء في طول العالم العربي والإسلامي النظرة الخرافية والدجل وروجوا الاستكانة واليأس في أوساط الفقراء والمهمشين، وحتى بين الطبقات الموسرة وممثليها من الأمراء والحاشية التي تقبلت ما هو ضد العقل السليم

وضد الشرع الصريح، إما عن جهل مطبق، وإما لغرض التنويم والتخدير كما فعل زبانية الأُحتلال الكولونيالي في الجزائر (نهاية القرن 19 حتى منتصف العشرين) عن طريق عدد من الزوايا وبعض الأعيان الذين تمّ استدراجهم وتسخيرهم لخدمة الطغيان الفرنسي والمساعدة على تأبيده، مقابل مزيد من الإذلال والتدمير لشعبهم وانتهاك حرماتهم ومقومات هويتهم التي فرّطوا فيها بالفتاوى الشيطانية لصالح عدّو يعتبرهم مجرّد كلاب مدجنّة ومدربة على الركوع والخنوع.

بالإضافة إلى ذلك الركام المتعفن من الشعوذة والإسرائيليات سحبت التيارات الغنوصية (La gnose) (فلسفة آخر العهد الهليني) وبقايا أديان فارس القديمة من العقل صلاحياته، وسعت تيارات مثل الباطنية والحلولية والتوحد بالخالق لتخريب عقيدة الإسلام المبنية على التوحيد والتنزيه والتساوي بين أداء فرائض العبادة، وواجبات العمل والجهد والاجتهاد الذي يميّز الإنسان عن سائر أنواع الحيوان، فتعالت الدعوات لاعتزال الدنيا والبحث عن وسطاء بين الله وعباده لديهم قدرات خارقة وطلاسم لا يفهمها أحد، بل ليس من حقه أن يسأل عن معناها ومبناها، فذلك كفر ومروق لا يغتفر.

3. إسلام البرهان حاضن العلم والعرفان

تُسمى تلك التيارات التخريبية التي هوت بالأمة العربية والإسلامية إلى الحضيض بالباطنية والدهرية ويوصف أتباعها بالزندقة والمروق، أحيانا بالمعنى الديني، وأحيانا أخرى بالمعنى السياسي، حتى نهاية العهد العباسي الثاني في القرن الثالث الهجري.

لقد تأسس الإيمان في الإسلام على البرهان وكان ذلك هو الدافع لانتشار حلقات البحث في علوم "الأوائل" وظهور مدارس عكفت على تمحيص آراء طاليس وهيروقلطيس وأناكساغوراس وفيثاغورس وأرسطو الذي حظي أرغانونه (منطق) وطبيعياته بعناية كبيرة واحتل في الأدبيات الفلسفية الإسلامية مرتبة المعلم الأول، كما حمل أفلاطون (أفلاطون الإلهي في الفلسفة الإسلامية) لقب "الشيخ" وكما ازدهر التشريع للدين (الفقه وأصوله) والبحث في إعجاز القرآن، فقد تحقق تقدم كبير في تقنين اللغة والبيان، وتمّ اكتشاف قوانين لفنّ الشعر (علم العروض) وفقه اللغة وأسرار البلاغة والمعجمية، وبدأ التيار التجريبي خطواته الجسورة باستقراء الجزئيات للوصول إلى الكليات أي وضع القوانين بالملاحظة والاستقراء واختبار الظواهر المشاهدة في الطبيعة وفصلها عما وراء الطبيعة (الميتافيزقا)، التي اعتبروها مدخلا للدهرية التي لا تعترف بالخلق: لا شيء يفنى ولا شيء يوجد من عدم (EX-Nihilo Nihil).

صدر في تلك الفترة كثير من المؤلفات التي تحمل عنوان "مفتاح" و"الأصول" وتعني البحث الأساسي أو التنظيري، وقد أجمل أبو يعقوب الورجلاني (من ورقلة الجزائرية 1174 م) تلك المنهجية في التعبير الرائع التالي: تتمثل المعرفة في: "حسّ مطبوع وعقل مجموع وشرع مسموع" وأظهر العلماء تواضعا كبيرًا فهم يرون أن في كل مسألة (من غير قواعد عقيدة التوحيد) أكثر من قول، أي أنه من المحتمل أن يكون في القضية الواحدة عدّة آراء تزيد من المعرفة بها ولا تنقصها، وأن ما توصل إليه العقل البشري ليس كل الحقيقة، وإنما هو جزء منها، وهذا ما

تعنيه أيضا جملة "والله أعلم" التي تبدأ بها وتنتهي إليها كتابات الفلاسفة والعلماء المسلمين، وقد أعطى البعض لهذه الجملة خطأ معنى العجز وإحالة كل شيء على علاّم الغيوب.

تتضح مقولة الورجلاني السابقة على ضوء المقارنة التي يعقدها الفخر الرازي بين ثلاثة من أعلام علوم القرآن وعلوم البيان وعلوم البرهان هم الإمام الشافعي، والخليل بن أحمد الفراهيدي وأرسطو، يقول الرازي: "وأعلم أن نسبة الشافعي إلى علم الأصول كنسبة أرسطاطاليس إلى علم المنطق، وكنسبة الخليل إلى علم العروض..." لقد وضع أولئك المؤسسون الثلاثة وتلاميذهم قواعد المنظومة المعرفية وأنجزوا بمقياس زمانهم الأساس التجريبي للمعرفة (حسّ مطبوع) واستنتاج القوانين (عقل مجموع) والمرجعيّة التنظيمية والأخلاقية (شرع مسموع)، أو الدستور الذي يحتكم إليه الجميع.

4. حرّية الفكر والإنسان وجواسيس السلطان

قدّم أبوحيان التوحيدي في مؤلفه "الإمتاع والمؤانسة" محاضر جلسات عن المناظرات وحلقات الدرس الشبيهة بمخابر البحث والمجالس العلمية الشبيهة بالأكاديميات الحديثة اشترك فيها فلاسفة وعلماء في المنطق والرياضيات وعلوم الدين وتراجمة من لغات العصر (اليونانية والسوريانية والفارسية...) وفقه اللغة والألسنية وممثلي مذاهب دينية على حافة الإسلام أو على النقيض منه مثل الصابئة والباطنية والدّهرية يتبادلون الرأي ويقارعون الحجة بالحجة، في عواصم يمكن اعتبارها بلغة عصرنا هذا متعددة الأعراق والثقافات (Multicultural Societies)، أشبه "بالخلطة" الأمريكية

(Multing pot) في مجتمع متعدد الألسن والأصول الثقافية بدون تمييز عنصري.

نجد في تسجيلات التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة ما يشبه محاضر جلسات الندوات التي تعقد اليوم، لا يتسع المقام هنا للحديث عن محتواها السوسيولوجي و المعرفي لما كان عليه مجتمع بغداد القرن الرابع الهجري ونكتفي بالملاحظات الأربع التالية:

1. أن هناك علاقة بين التقدم وازدهار المنظومة المعرفية والإبداع وبين قوة الدولة وتحقق الأمن والاستقرار الذي يسمح بالتراكم العلمي، ولا يحدث ذلك دون قدر من أكسجين الحرية التي لا تخيف مراكز السلطة سياسية كانت أم دينية، أو هما معا مجتمعتين، كما حدث ذلك أثناء خلافة المأمون، وقبله عند الخليفة خالد بن يزيد (توفى سنة 85 هـ) الرجل الفذّ والشغوف بالعلم حتّى أنّه فضله على أُبّهة السلطة وصولجان الحكم.

2. لم تشكل الديانتان النصرانية واليهودية أي تهديد حقيقي للدولة والمجتمع الإسلامي في عنفوان قوته أثناء القرون الثلاثة الأولى للهجرة، وقد كان للنخب المنتمية للطائفتين المذكورتين آنفا، حظوة ومكانة في الدّواوين المدنية والعسكرية، ومقام محترم في مجامع العلم والترجمة بوجه خاص، ويظهر ذلك بوضوح في حلقة الدرس والمناظرة بين أبي بشر متّى بن يونس النصراني والصرافي النحوي واللغوي الشهير بحيث يظهر أبو بشر محاطا بالإجلال والاحترام الكبير من طرف تلاميذه وزملائه.

3. يذكر التوحيدي في محاضره أن من بين رواد تلك المجالس أشخاص يُعّدُون تقارير ويرفعونها لذوي الشأن بهدف الجوسسة ونقل آراء المشاركين في المناظرات ومواقفهم من رجال السلطة ونظام الحكم، يمكن تسميتهم بالبوليس السياسي بتعبير اليوم، من يقول بأن الرقابة والاستخبارات الداخلية من اختراع ستالين (كي.جي.بي) الذي يوصل إلى الكولاغ الرهيب، أو نظام العم سام (إف.بي.آي) وهستريا الماكارتية ومحاكماتها التعسفية والاستبدادية للمتهمين بالأفكار الماركسية وفضائح ووترغيت، هذا ما ظهر، وما خفي في عالمنا نحن يقترب منه أو يساويه.

4. بالإضافة إلى التمجيد الذي خصّ به القرآن السيد المسيح عليه السلام وأمه مريم وتبرئته من عقيدة التثليث، فإن المسيحيين الذين بقوا على دينهم السابق في كل المنطقة لم يتعرضوا للإكراه والإقصاء من المجتمع الإسلامي في تلك الحقبة المليئة كما يقول الشهرستاني بالملل والنحل، واعتبرتهم الدولة من أهل الذمّة عليهم احترام قوانينها، وعليها حمايتهم وهذا بالضبط ما تنص عليه مواثيق حقوق الإنسان والمواطن في عصرنا الراهن وهو ما حظي به أيضا اليهود على الدوام، وحرموا منه في أوروبا في عصر الأنوار وما بعده.

باستثناء الفترات التي شهدت تدهور الدولة والمجتمع وأصدر فيها حكّام جهلة وأشرار مراسيم لبس "الزنار" (لباس مميز لأهل الذمة) فقد تعايش اليهود والنصارى مع المسلمين في ودّ ووئام، (من الملاحظ أنّ ألمانيا النازية وفرنسا المارشال بيتان فرضتا على اليهود وضع النجمة الصفراء في الميتروبول والمستعمرات ومنها الجزائر التي لم يضطهد أهلها اليهود أبدا)

وكان لليهود بوجه خاص الحق في تشييد الصومعات والتجمع في أحياء خاصّة بهم كما هو الشأن بين المسلمين الذين يتجمعون إلى اليوم في مناطق بسبب وشائج القرابة أو الانتماء إلى ثقافة فرعية (Subculture)، يضاف إلى ذلك أن اليهود كانوا عصب الحياة الاقتصادية والمالية في البلاد الإسلامية، وهم كذلك على مستوى العالم كله، من الإخوة بوشناقي في جزائر الثلث الأول من القرن 19 إلى آل روتشيليد حتى اليوم.

5. أعراض الانحطاط أو مرض العصر وعلاجه بالداروينية الإجتماعية

هذه لمحة خاطفة عن حركية التقدم وصنع الحداثة في بيئة اجتماعية وسياسية تتصارع فيها قوى تتنافس على التأثير، ولا تخلو من التوظيف السياسي للأفكار والعقائد والآداب، يمكن النظر إليها الآن وفق القضايا التالية:

1. لقد أثارت مسألة الانطفاء (Décline) الثقافي والانحدار (Décadence) الحضاري اهتمام فلاسفة التاريخ والأخلاق والسياسة، واعتبرها مفكرون مثل ابن خلدون وشبنغلر (O.Spengler) وتوينبي (Twenbee).. ضمن دورة حتمية تبدأ بالشروق، وتصعد إلى العنفوان، ثم تتراجع إلى الغروب وتنهار، كما يثبت ذلك تعاقب الصعود والهبوط في العديد من الحضارات التي سادت ثم بادت بمقياس ما بعد عصرها، وأرجعوا ذلك إلى ما سمّوه مرض العصر (Le mal des siècles) أو فسروه بخلفية عنصرية فسبب التخلف والانحطاط في رأيهم هو تدهور الجنس (Dégénérescence)، وهو ما يفسر الخوف من الدمار والفناء الكوني (L' Apocalypse) الواردة في التّوراة والإنجيل وفي القرآن بصورة أخرى

(ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) وقد لقي فيلم باسم الأبوكاليبس رواجا كبيرا في العقد الماضي وما يزال.

نجد التحذير من تفسّخ الجنس أو العنصر عند كبار المفكرين الألمان من طراز هلدر (Helder)، شينغلر ونيتشه، وفي بريطانيا عند بيكون (F.Bacon) وغودمان (Goodman)... وفي فرنسا عند غوبينو (Gobineau) ورينان (Rinan) ودوتوكفيل (De Tocqueville) ... كما استخدم أغلب علماء وفلاسفة وأدباء أروبا عصر الأنوار وما بعده فكرة التفسخ وتحلّل الجسد والروح والعقل عند الجنس الأسفل، ذريعة لتدمير الشعوب المستضعفة واستئصال العرق الأسفل كما حدث في قارة أمريكا وأستراليا... وقام برنامج الاحتلال الفرنسي للجزائر على الإبادة لإنجاح الاستيطان والتخلص من الجنس الأسفل أو ما سمّوه الغبار البشري (La poussière humaine) أي تطبيق الحل النهائي (Solution finale) على كائنات لا قيمة لها ثم تصنيفها في مرتبة الحشرات الضارة، يقول نيتشة (هكذا تكلم زرادشت) إن قتل تلك الكائنات الحقيرة يعتبر خدمة للإنسانية، وهذا ما حدث ويحدث في مناطق من إفريقيا وفي تسعينيات القرن الماضي في البوسنة والهرسك، بإضافة الحقد الصليبي الأرثوذكسي على ما بقي من معالم الإمبراطورية العثمانية، وهو ما عرف باسم التطهير العرقي (Ethnic cleansing).

ومن هذا المنظور ينبغي فهم نظرية أصل الأنواع التي توصّل إليها دارون (ch. Darwin 1809-1882) المعروفة بالتطورية، فإلى جانب خلاصاتها العلمية، هناك ضمنا وصراحة تسلسل من وحيد الخلية غير المرئي

بالعين المجردة إلى القرد إلى الإنسان المتحضر الذي تحصره النرجسية الأوروبية (Eurocentrisme) في الإنسان الأوروبي، السيّد، والوحيد الجدير بالحياة، هذا هو حال العلم إذا خدم الإيديولوجية أو تمّ توظيفه إيديولوجيا للتبرير والتغرير.

وتنطبق نظرية دارون على المجتمعات الأروبية والأمريكية نفسها فالبقاء للأصلح أي الأقوى والأنفع هو كلمة السر والجهر التي يقوم عليها النظام الرأسمالي والمنافسة التي لا ترحم المستضعفين في تلك المجتمعات، إن تلك المنافسة تخدم الأقوى أي الأكثر ثروة وجاها بالوراثة أو بالكفاءة والذكاء، ولعل ذلك ما يفسر أن البلد الرأسمالي الأكثر تمسكا بالدارونية الاجتماعية هو الولايات المتحدة الذي بدأ فيه الاحتجاج العمالي في مدينة شيكاغو وليس في أجندته إحياء ذلك اليوم، فالإنسان جزء من دولاب ضخم يتمثل في المركب الصناعي الاقتصادي العسكري الداخل فيه مفقود (كانسان) والخارج منه غير موجود (بلا دور ولا مكانة في المجتمع).

2. يعاني التاريخ الثقافي والسياسي للعرب والمسلمين من حالة شاذة نسميها ثقب الأوزون، فبالإضافة إلى كنوز التراث المفقودة في مياه دجلة والفرات والنهب الذي تعرض له نتيجة الاجتياجات المتتالية ليس من بدو التتار والمغول فحسب، بل كذلك على يد جحافل روسيا القيصرية التي دمرت معالم الحضارة ومدن الإشعاع العلمي والثقافي في بخارى وطشقند وسمرقند وخوارزم، أين ازدهر البحث في الرياضيات والفلك وعلوم القرآن والحديث والفلسفة، وانتقلت الثقافة العالمية بفضل نخبة من العلماء الأفذاذ من التداول الشفهي إلى عصر التدوين على أوسع نطاق، وتزايد الاتصال بين شرق وغرب آسيا، وخاصة الهند

والصين وما بينهما، ومن المدهش أن يستعين مؤرخو الهند إلى اليوم بمؤلف أبي الريحان البيروني عما "في الهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة".

3. حدثت نفس الكارثة في الجناح الغربي من أوطان العرب والمسلمين، فما وقع في الأندلس من جرائم ضد الحضارة والإنسانية على يد الكاثوليكية الانتقامية لم تسجله كاميرات التليفيزيون ولا أقلام المحققين الصحفيين ومنابر جمعيات حقوق الإنسان والهيئات الأممية المختصة: شمل التدمير المادي والمعنوي معاقل المعرفة في بجاية وتلمسان وفاس وتونس وغيرها من محافل المناظرة والتعليم التي كانت في القرن الرابع عشر مع الأسف تتراجع إلى تقديس نصوص السّلف صالحه وطالحه، وتدخل في سبات ثقافي عميق وتفكك سياسي خطير أوصلها إلى التناحر لأتفه الأسباب.

4. لسنا من المختصين في التاريخ ولا سيما في حقبة التاريخ الوسيط، ولكننا نستسمح أهل الرأي في الموضوع في القول بأن هبّة المرابطين لإنقاذ الأندلس والجناح الغربي كله لم تكن أكثر من حقنة مورفين دافعها الحقيقي شهوة السلطة كما يشهد على ذلك ما حدث بمجرد دحر الغزاة من الفرنجة.

ليس في تلك النجدة، أي منظور استراتيجي لمواجهة الخطر الداهم والذي سيمزق بعد حين معقل المرابطين أنفسهم، ويمتد إلى وهران وبجاية لؤلؤتا غرب المتوسط.

ما أشبه تلك الهبّة البدائية على الرغم مما فيها من شجاعة وفروسية بما حدث بعد قرون عندما هبت الجيوش العربية وقياداتها المتخلفة والمترهلة والغارقة في الملذات لإنقاذ فلسطين، وانتهت في بضعة أيام وأسابيع إلى

ما يسمى النكبة، وفي الحقيقة إلى اقتسام أشلاء الضحية بين الدول المجاورة وإسرائيل الجديدة التي كانت وما تزال الرابح الوحيد في "مشاجرات" (لا نقول حروبًا) هزلية تخيّلها سيرفانتس في صورة دونخوت الذي يتفوق على ساسة وقادة من عجين الكارتون بالهمة والنوايا الشجاعة.

5. يمتد عصر الغفلة والظلام والتناحر ما بين 1258 حتى منتصف القرن 19 أي ما يزيد على ستة قرون، هي ثقب الأوزون في أرض وسماء الثقافة والفكر والسياسة عند العرب والمسلمين، وباستثناء صوت الشعراء ومواعظ بعض الأئمة اختفت أغلب وقائع تلك الفترة وما بقي منها لم يخضع إلا في النادر للتحليل والتفسير الثقافي السياسي الذي يربط الأسباب بالنتائج، ويعيد النتائج إلى أسبابها في النسيج الاجتماعي ومسؤولية النخب القيادية سواء كانت في الحكم أم قريبة منه، أو معارضة له في تلك الفترة التي ساد فيها تفسير الحاضر بالماضي جملة وتفصيلا، وكأن الزمن توقف في سديم جامد تتكّرر فيه الأيام والسنون بل العقود والقرون بصورة طبق الأصل، بعد أن ضيّعت الدولة والمجتمع ذلك الأصل المتمثل أساسا في القرآن وبيانه واكتشاف الكون ونظامه.

ليست مشكلة العالم العربي والإسلامي في دولة الدين أودين الدولة، إنها فيما نرى إحالة شؤون الدين على الدولة وإلقاء شؤون الدولة على عائق الدين، وكأن الدين حقيبة مفتوحة تبرر العجز والتقصير والقصور، وكأن الدولة كيان منفصل عن المجتمع الذي تسوسه وبإمكانها إصدار مراسيم لتجريد الناس من عقائدهم، لا يوجد أي مجتمع بلا دين أو إيديولوجية تعوضه أو تزاحمه في مجاله، ولنتساءل ما هي حصيلة تيارات

الماركسية والوضعية المنطقية والوضعنة (Positivisme) بوجه عام؟ وإلى أين توصل تيار العلمنة (Scientisme) الإلحادية في الغرب والشرق الاشتراكي؟

الحصيلة واضحة للعيان: البابوية في الفاتيكان وفي كانتبري (بريطانيا) وفي سان بيترسبيرغ (روسيا) أقوى مما كانت عليه في منتصف القرن الماضي، ويحتشد في ساحاتها مئات الآلاف من الشباب ينامون في العراء لإلقاء نظرة على قبعة البابا وعصاه، لقد حل الغرب إشكالية العلاقة بالدين ومؤسساته على النحو التالي:

– تكوين تآلف دائم بين القوة الصناعية والعلمية تقودها العقلانية والنفعية المادية والموضوعية في بعدها الماركنتيلي (التجاري) في هذا التآلف يعمل الدين كشريك للدولة، وليس ضدها أو كقوة موازية ومستقلة عنها، كما يبدو في الظاهر.

6. على العكس من بلدان استعادت إرادتها في المشاركة في حضارة العصر والتطلّع لموقع محترم في التاريخ الإنساني مثل الصين وعدد من شعوب شرقي آسيا، فإن معظم العرب والمسلمين تخلّوا عن أجندة تاريخهم الذي ينسبون إليه طوعا أو كرها فالقليل يعرف ما هي السنة الهجرية الآن؟ وما هو الشهر إذا لم يكن رمضان أو ذي الحجّة؟ وما زلنا نقرأ في كتابات بعض المفكرين ونسمع ونرى في وسائط الإعلام، أن هناك من ينتظر منذ سقوط غرناطة (1492) انهيار الحضارة الغربية من الداخل بواسطة طوفان، زمن نوح عليه السلام أو نزول لعنة (دَعْوُوسُّو) على الكفرة الفجرة، ولا يخفى ما في هذا اللاّعقل من نظرة سحرية وانتظار للخوارق والمعجزات التي أبطلها الإسلام، واستنكر انتظارها والاعتماد عليها، لقد خرج الغرب أقوى من الصراعات التي

تخللت القرن الماضي سواء كدول منفردة أم مجموعات متحالفة، وتفرّغ منذ منتصف القرن الماضي لتعميق وتسريع تفوقه الاستراتيجي على العالم كله وفق منظور ف.بيكون (1622–1861) المعرفة قوة (Knowledge is power).

6. هل كان العلماء المسلمون مجرّد حرّاس لمكتبات الأوّلين

قبل أن تلفظ الخلافة العثمانية آخر أنفاسها كان الغرب الأوروبي والأمريكي قد أخذ للحياة سلاحها (وهو ما أوصى به ابن باديس شباب الجزائر والمسلمين عامة)، لم يكن ذلك السلاح هو البترول أو عدد السكان ومساحة البلدان التي تشكّله، بل كان قوافل من العلماء والفلاسفة والمصلحين الاجتماعيين والدينيين نذكر منهم على سبيل المثال غاليليو (1564–1642)، وكوبيرنيكوس (1473–1543) وكبلر (1571–1630)، نيوتن (1642–1727) الذين استوعبوا فكر الحسن بن الهيثم وابن النفيس وابن رشد وابن خلدون وآلاف غيرهم الذين لم يكونوا أبدا مجرّد جسر عبرت عليه فلسفة اليونان وحكمة الشرق، كما روّج لذلك بعض المستشرقين وبعض الخلف من المنطقة، وذلك على أي حال رأيهم، إن الشذرات الباقية من أعمالهم تؤكد أن الحضارة العربية الإسلامية قد أضافت الكثير إلى التراث الإنساني، وأن المفكرين والمبدعين فيها لم يكونوا أبدا مجرّد تراجمة وحراس أبواب (concierges) مكتبات أثينا وحرّان والإسكندرية ورودس وملطيه، لقد ظلم العرب والمسلمون أنفسهم بالغفلة والتناحر فظلمهم غيرهم بالاستضعاف والنكران.

من ذلك التراكم المعرفي الثمين انطلق روّاد النهضة الأوروبية المتصاعدة بلا توقف وفي المقدمة علماء من أعلى طراز نذكر منهم:

- نيكولاس كوبيرنيكوس (1473-1543)
- جاليليو (1564-1642)
- يوهان كبلر (1571-1630)
- إسحاق نيوتن (1642-1727)
- توماس هوبز T.Hobbs (1650-1813)
- جون لوك J.Lock (1632-1704)
- رونيه ديكارت R.Descarts (1596-1650)
-كلود بيرنار C.Bernard (1813-1878)

هل تصنع كل الثقافات أدواتها الفكرية؟ وهل كانت المعرفة وراء كل إمبراطورية؟ إذا رجعنا إلى مدونات التاريخ نجد أنفسنا أمام مفارقة مؤداها: أن التلازم بين النهضة والتقدم العلمي ليس حالة ثابتة ومطرّدة في كل الإمبراطوريات ونترك للأستاذ ج-م لوبلان (J.M. Leblond) الإجابة التي نقتبسها من دراسته القيمة عن عالمية العلم (Le monde diplo Av.2006) :

"لقد وُجدت حضارات قويّة لم تتميز بأيّة نشاطات علمية أو تطبيقات تقنية هامة، ولم يمنعها ذلك من الازدهار وبسط نفوذها الإمبراطوري الكبير، وتقدم لنا روما الدليل على ذلك، فإذا كان بالإمكان أن نذكر عددا كبيرا جدا من العلماء الإغريق مثل فيتاغورس وإقليدس وطاليس وأرخميدس وآخرين، فإنه من الصعب العثور على أسماء رومانية قدمت اكتشافات علمية تذكر،

هناك الفيزيائي بلين (Pline) والمعماري فيتروف (Vitrov) والخبير الزراعي كولومال (columelle)، ماذا بعد؟ ليس الكثير!"

لقد أخذ الرومان من الإغريق بعد أن هزموهم عسكريا فاستعانوا بعلمهم وفلسفتهم وأخذوا عنهم فنون النّحت والعمارة، إلا أنهم فشلوا في المحافظة عليها وتطويرها وهو ما لم يمنعهم على أيّ حال من فرض سيادتهم على أجزاء كبيرة من أروبا وحوض المتوسط!"

لقد أضاف العلماء العرب والمسلمون تراثا كثيرا إلى علم "الأوائل" وفنونهم وآدابهم، أنكر من أنكر واعترف من اعترف، وفي كلتا الحالتين فإن المعرفة التي أنتجها العرب والمسلمون في تلك الحقبة من التاريخ وما توصل إليه العقل والحدس والإبداع في القرون التالية هو حلقات في التراكم الحضاري وأقرب إلى تاريخ المعرفة وفصول من موسوعة الإبداع الإنساني المتواصل والمتجدد وليس المعرفة والإبداع كما هو الآن.

إن ذلك التراث يتطلب في كل حقبة من التاريخ مزيدا من التجاوز في الأشكال والمضامين، في الموضوع والمنهج، فلكل جيل زمنه التاريخي والحضاري، ولكي يترك بصماته ويُوقّع حضوره في سجلاته، فإنه لا يكفي أن يتعيّش على التركة التي خّلفها آباؤه وأجداده.

لن نشغل أنفسنا كثيرا ولا قليلا في هذا المقام بحصيلة ما تحقق من تقدم لما يُسمى النهضة، فقد خاض فيها الكثيرون تحت عناوين عديدة مثل التأصيل والتحديث، واليقظة والتغيير والتجديد، والإسلام هو الحل، والثابت والمتُحوّل إلخ... لأن النهضة ليست علامات تقدير (ممتاز–حسن–ضعيف)

توضع في الدفتر المدرسي للتلاميذ، وحفلات تكريم توزّع فيها الأوسمة والحلويات ويغلب عليها تبادل المجاملات، ثم يُنْسى كل شيء في انتظار موسم جديد للعلاقات العامة.

إنها عقد شراكة كما يقول (م. فيبر) ثلاثي الأطراف بين النخب والدولة والمجتمع يخطط وينجز وفق رؤية حضارية للموقع الذي يطمحون إليه في الأمد المنظور وعلى المدى الطويل.

بدل ذلك لننظر في حصاد الأطراف المتجاورة في المنطقة العربية والإسلامية المفككة والغارقة في ظلمات الفساد والإفساد وهزال الإرادة على مستوى الأمة والكيانات التي تنتمي إليها تاريخا وحضارة.

إن بارقة الأمل الواعد، ولا أقول الوحيد، هي حرب التحرير الجزائرية التي يمثل الكفاح المسلح جانبا من نظريتها الثورية، وليس كل منظورها لعلاقة الفرد بنفسه وبالجماعة وبالوطن والأمة ولأهمية التحالف بين المقهورين في كل أنحاء العالم.

بقيت أصول النظرية الثورية الجزائرية صادقة وصحيحة ولكن منهجية العمل النهضوي وثقل الآخر الحاضر الغائب (فرنسا الكولونيالية) في صورة السيد الذي لا غناء عنه، وصورة الجلاد الكريه في آن واحد، أدّى ذلك إلى إهدار القبس النوراني وحوّله إلى تلفيقيّة يتغلّب فيها التكتيك والمؤقّت على الاستراتيجية والحزم والعزم.

تناقض وازدواج (Ambivalence) في الانتماء الفكري والثقافي، بين ثقافة تقليدية لا ترضي شرائح من النخبة والمجتمع ويرى الكثير من أفرادها

أنها أدت وظيفتها باعتبار أنها كانت ذخيرة حية للمقاومة ومرجعية لفصيلين هامين من فصائل الحركة الوطنيّة، (حزب الشعب وجمعيّة العلماء) ولم تتنكر لها أغلب الفصائل الأخرى الأكثر تأثرا بأدبيات فرنسا ثورة البورجوازية على الملكية والإقطاع نهاية القرن 17، وبين ثقافة أخرى حديثة ومتطورة رأوها فقط عند سيد الأمس، ولم يروها عند غيره مما أعطاها تأثيرا وجاذبية قوية تُذكر دائما بقوته وتفوقّه، وقد خصّص ألبير ميميّ (A.Memmi) دراستين لهذا التناقض كما يبدو في الجزائر بوجه خاص، الأولى بعنوان صورة المستعمر (بفتح الميم) 1987 (Portrait du colonisé) والثانية بعنوان الوطن الأدبي للمستعمر 1999 (La patrie littéraire du colonisé)، فضلا عن الصراعات والتجاذبات بين الزعامات وخوصصة النظرية الثورية وهي تراث الشعب الجزائري كله، ومحاولة اقتسام ريعها وأمجادها بين العشائر والبطون والأصول والفروع. أوصل كل ذلك، وليس الأيادي الخفية وحدها الجزائر إلى فتنة التسعينيات التي لم تحظ لحد الآن بما تتطلبه من دراسة تاريخية اجتماعية وثقافية سياسية، فلن تستفيد بلادنا شيئا من الأوصاف التي تطلق عليها وتصنيف الجزائريين إلى ضد ومع هذا أو ذاك.

7. القوميون وأنصار الخلافة : من الغفلة إلى الخيبة

نعود بعد هذه الفاصلة إلى التقاط صورة أرضية لتفاعلات التخلف والغفلة والاستضعاف في منطقة منغلقة من الداخل ومفتاح أبوابها في الخارج، فقد عجز العرب والمسلمون طيلة القرن العشرين عن إنجاب حركات وتيارات عميقة التأثير وذات نفس طويل تنشر الحرية وتجمع بين

التنمية والتحديث الذي انطلق قطاره في الغرب بسرعات متزايدة منذ منتصف القرن 15 وإلى اليوم.

في مقابل دعاة النهضة والمبشرين بها ارتأى فريق آخر أن العالم العربي والإسلامي أخطأ الطريق وانجذب أكثر نحو الانحطاط منذ انهيار الخلافة العثمانية واقتحمت سنابك خيل التحالف الغربي استطنبول (في تعبير توينبي في مؤلفه "حرب وحضارة") واستلام الثنائي البريطاني الفرنسي خريطة المنطقة وتقسيمها بتنافس وشراهة بين راية "يونيون دجاك" الانكليزي وثلاثي الألوان الفرنسي.

قبل ذلك كان لانتقال مركز الخلافة من بغداد– القاهرة إلى الأستانة أي إلى حضن الأتراك، وقد كانوا في الحكم (السلاجقة) باسم السلطة الشكلية لخليفة أصبح أقرب إلى موظف بسيط بلا نفوذ ولا رأي حتى في بيته الخاص، أدى ذلك الانتقال إلى إحساس مكتوم بالمهانة بين نخب المشرق لم يتجاسروا في البداية على الجهر به فالأتراك مسلمون وجيشوا جحافل وصلت إلى أسوار فيينا وأخضعوا لراية محمد الفاتح كل البلقان وجزءا من وسط وشرق أروبا.

في الجناح الغربي لم تعتبر النخب والشعوب الوجود التركي احتلالا، وكانت تثور وتتمرد على ظلم الحكام سواء أكانوا أتراكا أم بربرا أم عربا، أي أن الاعتراض كان على الظلم، وليس على أصل الحاكم (الجنسية أمر مرتبط بالدولة الوطنية) فهي في نظرهم إسلامية، وكفى، فلم تكن القومية بمدلولها المشرقي معروفة، أولها أتباع ومريدون خلال القرن 19 في الجزائر

بوجه خاص، ولذلك ارتبط الكفاح من أجل الحرية بالدفاع عن العقيدة الإسلامية باعتبارها القوّة الروحية الباقية والمحرّك الأساسي للتعبئة والتضحية من أجل الوطن.

في نهاية ذلك القرن أدرك بعض المثقفين في المشرق، أن الباب العالي آيل لا محالة إلى السقوط، وأن الزحف الأوروبي على الأبواب، فارتأى فريق منهم أن طريق الخلاص هو الإحياء الإسلامي وإعادة بناء خلافة إسلامية حققت بالفعل وحدة غير معلنة لمنطقة مترامية الأطراف يتنقل فيها الناس بحرية وبشعور عام بأنهم في دار الإسلام، أو تحت رعاية العهد والذمة إذا كانوا من سكانها اليهود والمسيحيين.

بقي مشروع الخلافة مطلبا عاما يسعى إليه البعض ويعترض عليه البعض الآخر، وقد سال كثير من الحبر والدماء من أجل المسعى أو بسبب الاعتراض عليه، من أقصى بلاد المسلمين إلى أدناها دون أن تموت الفكرة أو ينتصر المعترضون، وهكذا أصبح المشروع ومحاولات إجهاضه جزءا من المأزق والمشكلة وليس من الحل.

اتجه الفريق الثاني إلى فكرة القومية العربية التي كانت في بداياتها الجنينية تشمل المنطقة العربية كلها، قبل أن تتقلص عمليا إلى ما يسمى بالقطرية، وينتهي إلى الانشقاقات الايديولوجية وما تبعها وسبقها من انقلابات باسم النهضة والقومية، وبعد 1948 أُضيف للبيانات الانقلابية العبثية تحرير فلسطين.

الخطوة الأولى في برنامج الجماعات القومية هي التحرر من الأتراك العثمانيين، ولذلك لا يمكن أن تتضمن تلك الخطوة مرجعية إسلامية فالأتراك مسلمون، بل هم في تلك الفترة المركز الرمزي أو الفعلي للمسلمين والكعبة تحت حمايتهم، ومن هنا أتخذ ذلك الفريق توجها علمانيا وجمع في صفوفه مسلمين ومسحيين، وكانت اللغة العربية والتاريخ العربي ابتداء من العهد الجاهلي من بين الموضوعات التي تمّ إبرازها وتمجيدها بمسحة رومانسية وبلاغية واضحة.

وقد خصص الباحث العراقي "د.جواد علي" 10 مجلدات ضخمة تحت عنوان المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 1973، وخصص ساطع الحصري كتابات كثيرة لفكرة القومية العربية، وجعل الضباط الأحرار في مصر الوحدة العربية أحد الأهداف الأساسية في سياسة بلدهم الذي حمل اسم الجمهورية العربية المتحدة (1958) لحوالي ثلاث سنوات مع سوريا، وقد رجع هذا المشروع بعد أقل من عقد واحد (1967) إلى نقطة الصفر، بعد كارثة الحرب الخاطفة التي كشفت عن الفرق الشاسع بين خطاب التحدي لإسرائيل من جهة، والاستعداد الحقيقي لمواجهتها على مستوى المجتمع ومؤسساته السياسية ونخبه المدنية والعسكرية من جهة أخرى.

كان الثنائي البريطاني الفرنسي المتربص بالرجل المريض والمنطقة كلها يتصيد الفرص، ويبحث عن الرديف، وسرعان ما وجد في مطلب الاستقلال الذي رفعه القوميون المنفذ والأداة للانقضاض على المنطقة وتقطيعها إلى أشلاء متناثرة، كان المقابل مجردّ إغراء بإنشاء الدولة العربية الكبرى إذا ساعد العرب على إسقاط العثمانيين وطردهم من المنطقة.

لم يكن ذلك الوعد سوى سراب وخداع، ففي نفس المدة صدر وعد صريح من رئيس الحكومة البريطانية حمل اسمه وعرف بوعد بلفور، يقضي بتأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، لم يعّد أحد العدّة لمقاومته وأبطاله في المهد، وكالعادة صدرت أصوات استنكار ومقالات تذكر بأبطال من عمر بن الخطاب الذي دخل القدس بتواضع وشهامة واحترام لكل الديانات إلى صلاح الدين القائد الرمز في الذاكرة الجماعية لأهل المنطقة مشرقا ومغربا.

تغذّت الخيبة والإحباط من خزان الذكريات، ولكن الواقع كذّب الأحلام وفشلت المنطقة كلها في طرق باب العالم المعاصر وتواصل ذلك الفشل واتخذ أسماء مترادفة مثل الخيبة والمرارة والنكبة والنكسة إلخ... أصبحت على لسان الشعراء والأدباء حائط المبكى وقاموس المرثيات التي لا تعد ولا تحصى.

ذهب حلم القوميين أدراج الرياح، فسرعان ما تم ترسيم الحدود وقيام هياكل الدولة الأمة تحت الحماية البريطانية والفرنسية، وتقدم مصر العشرينيات والثلاثينيات نموذجا لتصّور النخبة الفكرية والسياسية لآلية التحديث ومنطلقاته كما قام بها سعد زغلول (التحديث السياسي) وطلعت حرب (التحديث الاقتصادي) وطه حسين (التحديث التربوي والثقافي) وتعود بنا الذاكرة إلى إحدى مقولاته التي تبنتها أجيال في المشرق والمغرب ومؤداها: الغرب والشرق غصنان من شجرة واحدة تعّطل نمو الغصن الشرقي نتيجة الاحتلال الأجنبي (التركي–البريطاني)، وبالإمكان أن يلتقيا، وربما كان ذلك ردّا على من يقول الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا.

8. الإجهاض السافر للنهضة: الحالتان المصرية والجزائرية

إذا كان العرب لم يحصلوا على شيء فإن وعد بلفور بالنسبة لليهود كان أمرا مقضيا، فقد ولدت إسرائيل منذ البداية دولة قومية دينيّة وفي أحضان كل القوى الكبرى واكتفت دول الجوار بما يسمى التقسيم أي ضمّ أجزاء من جثة فلسطين القديمة، وكأن ذلك خدمة للقضية وهو في الحقيقة تغطية لإفلاس سياسي عسكري لنخب ومجتمعات تعيش خارج عصرها.

برّأ الأوروبيون ذمتهم من اضطهاد اليهود وعوضوهم بأرض خارج قارتهم واتهمت أبرز شخصية فلسطينية (الحاج أمين الحسيني) بالتواطؤ مع النازي، ولم يعبأ أحد بحوالي 800,000 من الفلسطينيين الذين شردوا في أصقاع المعمورة ومخيمات اللجوء في المنطقة، بعد ذبح الآلاف منهم، ولكن التعاطف والأموال تدفقت على اليهود ضحايا الهولوكوست الذي ليس للعرب والمسلمين فيه يد، بل كانت بلادهم ملجأهم وملاذهم الآمن.

هكذا بدأ القرن العشرون ببشائر نهضة، ووصل في منتصفه إلى نذر نكبة.

لا نزعم التأريخ لقرن الأحلام الضائعة في ضباب دخان الشيشة (النارجيلة) وأصوات البيانات التي يتجشأ بها عقداء للإعلان (رقم كذا) عن انتصار الانقلاب وبزوغ فجر الثورة وهزيمة الرجعية والعملاء الحقيقيين والوهميين والتبشير بالفجر الجديد للأمة العربية والإسلامية تبدأ تلك البيانات عادة بعبارة: "أيها الشعب العظيم..يا جماهير أمتنا من الخليج إلى المحيط...! وتنتهي بكلمات: أمة مجيدة ذات رسالة خالدة ".!

إن هدفنا كما أشرنا في بداية هذه السطور هو الاقتراب من إجابة عن التساؤل الأول : كيف تقدموا؟ ولماذا تأخرنا ؟.

على أي حال لقد كان للكارثة الثانية المتمثلة في تقتيل وتهجير نسبة كبيرة من أهل فلسطين بعد الكارثة الأولى في نهاية القرن 15 التي حدثت بنفس الصورة تقريبا في الأندلس ولم يكن لها صدى خارج الحزن والأسى في أوساط شعوب أوكلت أمرها إلى الله في انتظار الفرج، أما القيادات الأميرية فأغلبها كان مشغولا بحراسة الكرسي واستخلاص الضرائب بحد السيف وفضّ الشجار بين أنظمة قبلية بالاقتتال العبثي.

كان للكارثة الثانية أثر زلزالي تبعته سلسلة من الانقلابات مسّت خلال عقد واحد (1948–1958) معظم المشرق بما فيه بلاد اليمن السعيد ونظامه الإمامي المستمد من رفات المقابر الأثرية وعروش أخرى قريبة منه جغرافيا وتنتمي إلى آل عبد المطلب أو سلالة معاوية بن أبي سفيان القرشي.

من بين تلك الهزات الزلزالية تبرز محاولة مصر جمال عبد الناصر وخاصة ما بين 1954–1962 التي يمكن اعتبارها من أهم المحاولات للحاق بركب العالم المعاصر، وتنشيط فكرة الوحدة العربية خطابيا على الأقل، وهي في رأينا محاولة محدودة الأثر بسبب اصطدامها بواقع الأمة–الدولة وعدم وضوح ما يرجع إلى الخصوصية ومسارها التاريخي والمشترك، وما يتجاوز العواطف إلى المصالح المشتركة الدائمة.

وصفنا التجربة الناصرية بالمحاولة التحديثية الأهم في عقد الخمسينيّات وهي بالفعل خطوة متميزة مقارنة بما كان حولها في منطقة المشرق فقد تمكنت خلال عشرية واحدة من:

– الإطاحة بالنظام الملكي الفاسد وإبعاد حاشيته الطفيلية

– استعادة السيادة على ترابها الوطني وشريانه الحيوي – المتمثل في قناة السويس التي كانت مسمار جحا للوصاية البريطانية.

– تأميم الثروة الوطنية ومحاولة إعادة توزيعها على الفئات المحرومة.

– ظهور بوادر طبقة وسطى من خريجي الجامعات المتكونين داخل البلاد وخارجها، ساهمت نخبها في حركة التأليف والترجمة ونشر أو تبسيط (Vulgarisation) المنتوج الفكري والآداب والفنون.

– إصلاح نظام التربية والتكوين.

– خطاب التحدي لرفع الروح المعنوية (إرفع رأسك يا أخي).

– أما الديموقراطية فقد اعتبرتها الناصرية مثل التجارب الأخرى التي توصف بالتقدمية اهتماما برجوازيا تستخدمها الرجعية المحلية ومحركوها في المنطقة والعالم لتخريب وإسقاط التجربة الثورية.

لا شك أن عبد الناصر ورفاقه حاولوا التقرب من أمريكا حتى رفضت التعاون لبناء السّد العالي، ولم يدركوا جميعا في تلك الآونة أن واشنطن كانت متحالفة مع أنظمة عربية أخرى في عقد غير معلن فتلك الأنظمة تضمن مصالحها الحيوية (النفط) وتضمن هي بقاءها، ولا أهمية في هذا العقد لمسألة الحرية والديموقراطية وحقوق الإنسان، فسوف يتبين أكثر في نهاية القرن أنها مجرّد ذرائع وقواقع فارغة وتضليل عن المقصود والهدف الحقيقي وهو الهيمنة على مقدرات المنطقة على الأمد الطويل.

استعملت الولايات المتحدة ما أصبح يسمى الأصولية والسلفية "القشورية أو الجهادية منها"، بوجه خاص لمحاصرة وضرب التوجهات التقدميّة في المنطقة

مشرقا ومغربا، فكانت بعض البلدان ومنها الجزائر حتى عقد الثمانينات أشبه بالقلاع المطوّقة بالعداء والتحرش والتشويه فقد تمّ تأويل دفاعها عن مصالح شعوبها وعدم انحيازها للمعسكرين المتصارعين على النفوذ (التكتل الاشتراكي بقيادة السوفيات والتكتل الأطلسي بقيادة الولايات المتحدة)، انحيازا لموسكو وجسرا للشيوعية الإلحادية.

الحقيقة أن سبب المحاصرة لم يكن أبدا الخطر الشيوعي فقد تم حلّ الأحزاب ذات التوجّه الماركسي في تلك البلدان الموصوفة بالتقدمية ودخل عدد منها كهوف السرّية، وفرّ الباقون على قيد الحياة إلى موسكو وبراغ وبعض بلاد الغرب، ويمكن الجزم بأن الأحزاب الشيوعية في بلدان غرب أوروبا الحليفة لواشنطن أقوى تأثيرا في مجتمعاتها وعلى علاقة بموسكو أو بيكين ولم تطالب أمريكا أبدا بحلها وملاحقة قادتها، بدون أن تسمح طبعا بوصولها إلى أعلى مراكز القرار السياسي في الدولة (حالة أقوى الأحزاب الشيوعية في إيطاليا وفرنسا التي وُضع لها سقف لا تتجاوزه في أي انتخابات).

تلقت المحاولة التحديثية ضربة قاضية سنة 1967 بهزيمة مصر العسكرية الخاطفة والمذلّة، كما أشرنا في الفقرات السابقة، وبداية تطبيق شعار التلفيقيين في الجزائر أولئك الذين قضوا ردحا من الزمن في الحج والعمرة بين باريس وواشنطن، ولا ندري هل كانوا يجتهدون في المراجعة أم كانوا يتلقون تعليمات من وراء البحر والمحيط ؟! ولم تكن حصيلتهم لا مراجعة ولا تراجع بل أوصلت الجزائر إلى حافة الانهيار دولة ومجتمعا في أكتوبر من سنة 1988.

اهتمت دراسات قليلة بجوهر الأزمة والمعالجات التي أعقبتها من نهاية 1988 إلى 1991، وانقسمت البقية إلى خصوم جبهة التحرير، أو حزب السلطة الذي أدانوه وسعى بعضهم لتصفية تراثه منذ تأسيسه سنة 1954 باستخدام نفس التهم التي ألصقتها به إدارة العدوّ الكولونيالي قبل 1962 وتجادل آخرون حول التسمية هل أن أحداث 1988 هي زلزال؟ أم هي انتفاضة؟ أم هي ثورة على الثورة؟ أم للعودة إلى مبادئ الثورة؟ أم هي مسؤولية فلان وأتباعه؟ أم هي انتفاضة عفويّة احتاجت فقط لشرارة لينفجر بركان الغضب المكتوم؟

تغلبت في نهاية المطاف مساجلات الاتهام والاتهام المضاد، وغابت النخبة العالمة والمفكرة وتوزعت على الفرقاء السابقين، وعبّر البعض منها عن وجهة نظر خارج الحدود، وأضافوا ربما عن غير قصد معلومات أخرى لتقارير السفارات والمراقبين المتواجدين وراء الستار في جزائر العمق والسطح، لماذا لا يعرف أحد بالتدقيق ما حدث في ذلك الأسبوع من أكتوبر 1988؟

لا نقصد أجهزة الأمن بمختلف فروعه واختصاصاته، وإنما جمهور الناس الذين بقوا لسنوات يتخاطفون الصحف الفرنسية التي استفادت من الفراغ والمشاجرات اللفظية فأصبحت أقاويلها وتفسيراتها حقائق يتبادلها الناس عن قناعة وإعجاب !

جوابنا باختصار هو أن فكر السلطة ينبغي أن يتسع أيضا لفكر الدولة وفكر المجتمع فإذا كان من حق السلطة أن تدافع عن أطروحاتها، فإنها

تبقى سلطة مرحلة، أما الدولة والمجتمع فهما باقيان وإن تغيرت الحكومات والدساتير وتطورت الثقافة والعلاقات بالمحيط الجهوي والدولي.

هكذا خرجت المنطقة للمرة الثالثة من توطين الحداثة وتحقيق حدّ أدنى من الحضور الفاعل في تقرير شؤونها وإسماع صوتها في العالم، فقد خمدت الموجة الناصرية بوفاة زعيمها، كما طُويت صفحة التوجهات البومدينية قبل أن تصل إلى أية خلاصة بوفاة محركها الأول، بكل ما في التجربتين من أخطاء وإيجابيات.

حققت أمريكا بواسطة حلفائها في المنطقة اكتساحا جارفا فقد وجهت مداخيل البترول الضخمة في منطقة متخلفة في كل شيء باستثناء الهياكل المادية إلى إعادة نشر الدعوة الإسلامية وفق واحد من المذاهب الإسلامية ليس أهمها ولا أقلها شأنا، هو مذهب لا غير، فتدفقت الأموال على مجاهدين يقادون بواسطة التخدير الإيديولوجي والإحساس بما يعانيه المسلمون من اضطهاد في شتى أنحاء العالم بما فيه بلدانهم المحرومة من حرية التعبير والإبعاد التعسفي عن المشاركة في نظام الحكم والتوزيع العادل للثروة.

تواصلت الغفلة والبحث عن الحلول المريحة عن طريق لوائح الهجاء وشتم إسرائيل وأمريكا وتغلّب في النهاية الفريق المدجّن أو الذي كان متخفيا، ولم يكن في حاجة لتسليم مفاتيح الحل والعقد لأمريكا سوى لعبور سنة 1973 الذي سرعان ما تحول إلى شبه انتصار، وفي الختام هزيمة وطلب استغاثة لإنقاذ نظام، وجيش كان على وشك الموت جوعا وعطشا! أصبحت لذلك العبور أعياد لا نقلل من

شأنها، ولكنها الهزيمة الثالثة في ربع قرن، وغطى العبور على أي تساؤل ونقد شجاع للذات والدولة والمجتمع.

ظهرت خلال تلك الفترة (1967–1977) مصطلحات وشعارات ومشاريع للإنقاذ والإصلاح القليل منها تحرك ذاتيا والأغلبية كانت حلقة في شبكة رأسها في واشنطن وجيبها في بلدان الخليج والأهم هو العقل المدبر والمبرمج وراء المحيط فأُهدرت أموال وأرواح وسالت دماء على جبهات وهمية اختلط فيها الحق بالباطل، وكان الكل في صف الخاسرين أدركوا أو لم يدركوا بأن إدارة المعركة موجودة خارج المنطقة كلها.

بعد ذلك التاريخ اطمأن الغرب وفي مقدمته أمريكا إلى أن إسلام البترول ومذهبه الخاص في فهم الشريعة قد أدى دوره وحقق الغرض منه وهذا ما يقوله علنا المختصون الأمريكيون في الإستراتيجية والمسؤولون عن السياسات الأمريكية في المنطقة.

9. الإجهاض الثالث وحرب المغفلين في الخليج

لم تستمر نشوة النصر الأمريكي طويلا فبعد سنتين فقط اندلعت الثورة الإسلامية في إيران وتبيّن أنه بالإمكان بروز إسلام آخر غير موال لأمريكا في المنطقة وفي الخليج بالذات، فقد واجهت القوّة العظمى –أمريكا– إذلالا لا يقل عما لحق بها في فيتنام، فتمّ احتجاز العشرات من الدبلوماسيين والعسكريين ومسؤولي المخابرات من طرف رجال حراس الثورة (الباسدران) ورفع لواء فلسطين على مقرّ سفارة إسرائيل التي كان لها مقام كبير في عرش الطاووس وتعاون مهم مع جهاز السافاك الرهيب.

غير أن الإستراتيجية الأمريكية كانت تتوفر على بدائل جاهزة للتفعيل فقد تحركت خزينة البترودولار لمواجهة الخطر القادم من "فارس" وانساق العراق لحسابات خاصة بقيادته الانفرادية وبتحريض مكشوف من التكتل الغربي إلى إشعال فتيل حرب تدميرية بين إيديولوجيّة قومية كانت حذرة من التحالف المعلن مع الغرب بعد الإطاحة بالملك فيصل ونوري السعيد وانهيار حلف بغداد الذي جمع أنظمة مدجنة ومسخرة لتطويق المد السوفياتي مثل باكستان وتركيا، وأخرى إسلامية إمامية تريد الاقتصاص من الغرب على طريقتها، وقد كنّا من بين شهود العيان ونحن في طهران (1989–1991) لما تعنيه كلمات "مَرْكَ بَرْ أَمِرْكا" (Marg Bar Amrica): الموت لأمريكا.

استعمل دعاة البعث العراقي الذين توقفت ساعتهم في معارك ذي قار، والقادسية مصطلحات وشعارات تثير الغثيان مثل العجم والعلوج والمرزبان المهزوم وخالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص قاصم ظهر إيوان كسرى، وعند كل نكسة ونكبة تتعالى صرخات وامعتصماه! (SOS) ولا مغيث ولا مجيب غير الضمادات التي لا تغضب العم سام.

وتمّ توظيف التاريخ في اتجاه سلبي يشعل الضغائن ويفصم ما وصله الإسلام من أواصر بين أمة محمد بكل مذاهبها، فقد أشعل دعاة البعث فتيل الفرقة والفتنة بين السنّة والشيعة وأيقظوا ذاكرة سوف تعود لتدمير النظام السياسي والعراق كله، ولكن باعتبارها واجهة فقط لحرب 2003 الأنغلو–أمريكية.

سعت أمريكا وحلفاؤها إلى إطالة أمد الحرب، وساعدها في ذلك أغلب بلدان المنطقة لغاية تصبّ لصالح الغرب وحده تتمثل في تعميق الشرخ وتصدير السلاح وإضعاف الطرفين المتقاتلين مع تحويل نظام صدام إلى صديق في وضع محمي مؤقتا، ولعله من الإنصاف أن نشير إلى أن الجزائر كانت من البلدان القليلة في المنطقة التي حذرت من عواقب حرب بلا قضية حقيقية، وتدار بالنيابة عن المستفيدين من دماء وموارد الشعبين الشقيقين، واتخذت سوريا أيضا موقفا معارضا، ربما للسبب نفسه، وبلا شك بسبب الانشقاق والعداء بين جناحي البعث.

خرج العراق محطما بعد ثماني سنوات من الحرب بسلاح فرنسي أمريكي وتمويل خليجي، وظهر أن الممولين بالسلاح والمال لم يعودوا في حاجة إلى نظام بغداد، كما قرّر أصحاب التمويل أن مهمتهم قد أشرفت على النهاية وتخيل الحكم الانفرادي العراقي الذي ألّه زعيمه وأعطاه العصمة والإلهام السياسي والعسكري، أن الباب مفتوح لأخذ التعويض اللازم من جارته الكويت والحصول على بحيرة زاخرة بالنفط وأموال طائلة في بنوك العالم.

10. خطوة أخرى خاسرة إلى الوراء

كان ربيع سنة 1991 هو بداية النهاية بالضربة القاضية لما يسمى الأمن العربي والنظام العربي، مصطلح من وضع مراكز البحث الأنغلو-أمريكية (Arab order) ولا ننسى أن الجامعة العربية هي أيضا فكرة بريطانية في الأصل، ولا يعيبها ذلك لو أنها جمعت الأقطار حول مصالحها المشتركة الأساسية ولم تظهر على شاشات التليفزيون أدنى من مقهى "عمّي

موح" تبدأ بالقُبل والعناق (Bous-Bous) وتصل أحيانا إلى السبّ المقذع والتهديد المفزع!.

لقد انتهى النظام العربي من الناحية الفعلية (وإن بقي كشعار لفظي) بعد 1973، وإمضاء اتفاقية كامب ديفيد سنة 1977، فتدخلت الجيوش العربية لتعطي مظلة شكلية للإجهاز على ما تبقى من العراق بعد وقف الحرب مع إيران سنة 1988، وتحولت المنطقة برا وبحرا في مدة وجيزة إلى قواعد ومعسكرات تتكدس فيها الآلة الحربية الأمريكية التي تعبر قناة السويس بدون أن تحتج أية منظمة مدنية أو حتى جمعية طلابية على ذلك الاختراق الذي ألغى مقابل بضعة ملايين من الدولارات كل مكاسب وصمود 1956.

هل أن المقابل المالي (ما يزيد على مليار دولار سنويا) مبرر كاف؟ إذا كان الجواب نعم، إذن ما جدوى مئات الملايير المودعة في بنوك الغرب الأروبي الأمريكي التي يمكن حجزها لأي سبب كما حدث التهديد بذلك لمنع مساعدة حكومة حماس الفلسطينية التي توقعت في البداية أن يهب العرب والمسلمون لمساعدتها، ولكن الخوف من الغول الأمريكي جعل أثرياء المنطقة أول من يطبق القرار الظالم بمحاصرة حماس.

ماذا حقق الغطاء العربي؟ أو ماذا فضح من المستور عن جمهور الناس؟

الجواب ما نرى وليس ما نتوقع :

– تمّ تقطيع أوصال العراق إلى شمال وجنوب ووسط تمهيدا للكانتونية.
– عزل العراق عن محيطه وعن العالم تمهيدا للقضاء على سيادته الوطنية.

– إشراك المنطقة في تجويع شعبه وتشتيت نخبه شرقا وغربا قبل نهب وتدمير تراثه الحضاري الرائع (9000 آلاف عام) بين سنتي 2003–2005.

– شهدت سنوات التسعينات تقهقر التيارات اليسارية. وإفلاس العديد منها بعد انسحاب الإيديولوجية الماركسية من الساحة العالمية على رؤوس الأصابع، وتهاوي قلعتها الأولى في الاتحاد السوفياتي بنفس الطريقة التي تنبأ بها الرئيس الأمريكي الأسبق ر.نيكسون (R.Nixon) أو ديكي الماكر (Triky Dicky) كما سماه الإعلام الأمريكي.

بشّر نيكسون بانهيار قلعة السوفيات بدون طلقة نار واحدة في مؤلفه الشهير: "نصر بلا حرب" (A Victory Without War).

بعد إفلاس الأحزاب التقدمية والمراجعة والتراجع في الأنظمة التي كانت توضع في صف التحرر والتحرير، واندفاع غوغائيين للترويج لوطنية بلا إسلام بالذات، وليس أي دين آخر، ورّد عليهم غوغائيون آخرون بإسلام بلا وطنية إسلام أممي يتجاوز الوطنية بل يعتبرها خيانة وبهتانا وعدوى وبائية من الغرب.

11. 11 سبتمبر: بيرل هاربر أمريكا في منطقة هشّة

بعد كل تلك الهزائم والنكبات والنكسات والتراجعات كان البديل القديم الجديد هو البحث عن نسخ مصورة طبق الأصل من الماضي وكما كان عليه قبل ألف عام أو أكثر.

تعالت هتافات جماهير أضناها الفقر والتهميش والتواطؤ والفساد: الإسلام هو الحل، والقرآن هو الدستور، لم لا؟ والإسلام عقيدة الأغلبية من سكان المنطقة

وعقيدة 99 % من جناحها المغاربي، والقرآن نص متفق عليه بالإجماع ومقدس في قلوب الناس، ولا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه!! المشكلة هي التوظيف السياسي وحتى التجاري المغشوش للمقولات السابقة توظيف مصحوب بخطاب التحريض والمبارزات البدائية وليس بالرأي والاجتهاد والقياس، فضلا عن إدعاء مهمة المهدي المنتظر وإلغاء كل ما توصل إليه العقل الإنساني من حكمة وعلم وثقافة وتطهير المجتمع من التلوث الروحي والأخلاقي وتحطيم الدولة من الأساس وليس نظام الحكم فحسب. هذا مع الأسف هو منطوق المشروع ومضمونه.

تبّين في بداية القرن الحادي والعشرين أن بلدان المنطقة في اشتباك مهلك مع حاضرها وماضيها، مع تراثها وعصرها، ولم يعد الأمر متعلقا بحث الخطى للحاق بالعالم المتقدم، وإنما بالثأر والانتقام منه وهذه هي الخطوة الخامسة إلى الوراء.

من بين الخطوات الخمس الأخيرة إلى الوراء فإن الأخيرة تبدو الأفدح من سابقاتها، فقد أعادت الأمة إلى ما يشبه وضعية الأندلس قبيل اجتياحها ومحوها من خريطة العالم العربي والإسلامي.

أيا كان سيناريو 11 سبتمبر وما أضيف إليه من أوصاف مثل إجرامي– أليم–بربري...يقولها الجميع أحيانا لتبرئة الذمة وأحيانا للتضامن الإنساني مع الأبرياء (لاحظ أن لا أحد يذكر ضرب البنتاغون وهو هدف عسكري)، أيا كان ذلك السيناريو، فقد كان بالنسبة للولايات المتحدة "بيرل هاربر" الثانية وأصاب من جهة أخرى أثنين من رموز قوتها وهما مركزيتها التجارية (Trade center)، وقوتها الضاربة (البنتاغون).

هناك أمر آخر يعنينا في هذه المقاربة، ولا يقّل أهمية عما سبق فقد تأكّد لواشنطن أن هناك في هرم السلطة والحاشية في بعض البلدان العربية والإسلامية من يُقبّل الأقدام صباحا ويُموّل وينشط شبكات الغضب والانتقام من أمريكا والغرب بوجه عام مساءً.

12. جزائر التسعينات: مخبر وفُرجة

أيا كانت الدوافع الدينية والسياسية، فقد اتخذت الولايات المتحدة من تلك الحادثة نقطة انطلاق لتجميع تكتل دولي ضد الإرهاب بمعناه الأمريكي المضاد أساسا لحركات المقاومة والتحرر وإعلان حرب عالمية ضدّ القاعدة وفروعها وكانت قبل ذلك بسنوات قليلة راعيتها في أفغانستان والساهرة على انتشار فروعها والمشجعة لمموليها الذين تعرفهم جيّدا ليس من باب اللوم ولا حتى العتاب (فنحن نقرأ سجل التأخر) وإنما للإشارة إلى العلاقات العربية البينية هناك ظاهر وهناك باطن يترجم بالجملة التالية:

– إنّ ضعف أيّ بلد هو قوّة للآخر!

– وهذه ميكيافيلية سياسية منحطة وعقلية "سيوسيولوجية" القبيلة وليس الأمة.

إذ قبل تلك الكارثة (بالنظر إلى عواقبها) بحوالي عشر سنوات (1991) لم يتضامن مع الجزائر في محنتها إلا القليل جدا من الأشقاء والأصدقاء، بل اعتبر بعضهم أن سفك الدماء وتدمير الدولة والاقتصاص من نخبها بمجرد الشبهة "مخبراً" للفرجة مثل أي مباراة جهوية لكرة القدم، بل استنكر زعماء نصبوا أنفسهم أوصياء على الديموقراطية ما حدث سنة 1992 وما تلاها

وتناسوا ماضيهم ضدها أثناء كفاح التحرير الجزائري عندما كان كبيرهم وزيرا للداخلية والمسؤول عن بوليس التعذيب والقصف العشوائي على المشاتي والقرى في طول الجزائر وعرضها.

ولكن لنتساءل والأوان لم يفت بعد :

– لماذا حدث كل ذلك التخبط والانفراط في بلادنا؟

– كيف ولماذا تحوّل الإسلام من نواة صلبة للوحدة والانسجام إلى أتون للفتنة والصراع المهلك؟ وهنا ينبغي أن نتذكر أن الكعبة قصفت بالمنجنيق (مدافع ذلك الوقت) للقضاء على الخصم المحتمى بها، عقودا قليلة بعد وفاة خاتم الأنبياء (ρ)

– أين كانت مؤسسات الدولة ومنظمات المجتمع المدني؟

– من أوحى بتدويل "الحالة" الجزائرية ولصالح من ؟

أسئلة كثيرة يضيع الجواب عنها أحيانا في مواقف التخنْدُق والتموقع الإيديولوجي المريح مؤقتا، وتكرار جمل شعارية استهلاكية من نوع "الجزائر أولا وأولا وأخيرا " تعلن الولاء الفضفاض والانخراط في أي صفّ مفيد، ولكن دراسة "الحالة" الجزائرية قائمة على قدم وساق وراء البحر والمحيط وتساهم فيها نخب جزائرية لصالح مراكز القرار السياسي في بلدان لا تغفل أبدا عن مصالحها الجيوسياسية والاقتصادية والثقافية.

13. الحمل الكاذب والمجموع الصفري

تدخل الملاحظة السابقة في باب التعقيب على الحمل الكاذب لنهضة فيها من أمواج الجزر أكثر مما أعطت من أمواج المدّ، لذلك أدركت نخب لاذت

بالهجرة لأسباب حقيقية أو مصطنعة، أن المجتمعات العربية الإسلامية ترزح تحت وطأة أنظمة، لا هي ملكية دستورية ولا هي جمهورية تراعي الحدّ الأدنى من القواعد العامة للديموقراطية وآلياتها الميكانيكية التي يخلف فيها في بلاد الغرب الحاج موسى زميله موسى الحاج أي في إطار نفس النظام البرلماني الليبيرالي، يزيد أو ينقص جناح موسى أو جناح خلفه الحاج، بعض الرتوش فيها بلا شك ممارسة لقدر كبير من الحرية والاجتهاد في خدمة الدولة بالحزب وخدمة الحزب بالدولة. إن ذلك التداول الشكلي فيه على الأقل كما يقول المثل الشعبي "تبديل السّروج فيه راحة" للراكب والمركوب!

تشهد تلك النخب العربية والإسلامية وغير الإسلامية المتواجدة في الداخل والخارج وتشارك أحيانا في التعبير المؤطّر عن الرأي والموقف، تشاهد ما يحدث من تفكك في الساحة في عموم المنطقة مصحوبًا باحتجاج وعتاب يقترب من الهمس يُعّلق ببيانات مدروسة على العدوان الإسرائيلي والهمجية الأمريكية واحتقارها لشعوب المنطقة وحقها في العدل والحرية، وليس ما يسمى المعايير المزدوجة فالمعيار الأخلاقي أو السياسي أو المصلحي، إما أن يكون معيارا أو لا يكون أصلا، كيف يكون لإسرائيل الحق في العربدة والتنكيل بالفلسطينيين (ما تبقى من فلسطين مجرد ساحة للتدريب على الرماية) ومقاومة الفلسطينيين هي العدوان الذي يسعى حتى الجيران وبعض مفكري مراكز الدراسات الإستراتيجية وفقهاء الأمراء من ذوي القربى أنفسهم لإفشاله وتحميله مسؤولية تعطيل مسيرة السلام الخادعة؟!

من أوكل لأمريكا وحلفائها مهمة دمقرطة العراق؟ وهل ترسانة العراق البلد الذي وصل إلى المجاعة في التسعينيات تهدد بلدا يملك من أسلحة الدمار الشامل ما يكفي لتدمير الكرة الأرضية كلها 35 مرّة وفي أقل من 24 ساعة؟ وهل وضع العراق بدون ديموقراطية أسوأ مما هو عليه الآن بعد ثلاث سنوات من التحرير أي الاحتلال وإضافة منابع جديدة للطاقة وتكليف وكلاء آخرين يسيّرون الأزمة بالنيابة، لا يجرأون حتى على تسمية قوات البطش والإذلال وحلفائها من المرتزقة بقوات احتلال فشهوة السلطة والانتقام أقوى من العزّة الوطنية!

هذه هي المرحلة السادسة من نهضة أصابتها الشيخوخة المبكرة وصلت فيها المنطقة إلى ما يعرف في الرياضيات بالمجموع الصفري أو الفارغ (La somme nulle)، منطقة فقدت الوزن والجاذبية يصدق عليها قول الفقهاء: إذا حضر بعض ممثليها لا يستشارون وإذا غابوا لا ينتظرهم أحد.

كانت هيئات الأركان من الساسة والخبراء في أروبا على علم بأن المنطقة العربية تزداد هشاشة وهي في أفضل الحالات مجرّد أسواق، بسبب ما تعانيه من تخلف مُزْمن، هي المسؤولة عنه أساسا وأن الاستقطاب والاختراق ولعبة "غرّق" تسد هي في الحقيقة نتيجة للتخلف والاستغفال السهل للعديد من قادتها ونخبها، كانت أروبا طوال المدة السابقة تراقب وتناور وتتحرش، ليس أكثر.

لم تعد دول أروبا مثلما كانت عليه في النصف الأول من القرن الماضي ولم تصل بعد وهي تبني اتحادها إلى مستوى قوّة تضاهي القطب الأوحد

الذي ألحقها عمليا بحلفه الأطلسي دون أن يتجرأ أي بلد منها أو من خارجها أن يسأل تحالفُ ضد من؟

14. الخيبة السابعة

في عقد التسعينيات وما بعده، كانت الولايات المتحدة قائدة السرب المطيع، هي الأسرع والأكثر فعالية على طريقة تقاليد "الكاو بوي" فالذي يسبق في إشهار السلاح وإصابة الخصم في مقتل هو الفائز، وقد طبقت ذلك التقليد وفق منظور استراتيجي نشير إلى بعض فصوله فيما يلي:

1. تذويب المسألة الفلسطينية من داخلها وعلى مستوى المنطقة وتوزيع دمها على رباعية وفق خريطة أشبه بمتاهة رورشاخ (عدة أشكال هي لطخات من بقع الحبر الغامضة تستعمل في التحليل النفسي) تمهيدا لتنصيب إسرائيل كقطب أوحد في منطقة مسلوبة الإرادة وسلمت أمرها برضاها إلى العمّ سام.

2. إجراء عملية جراحية بدون تخدير في العراق، ليس للاستيلاء على مزيد من منابع النفط فحسب، فلم يمنعها أحد من ذلك، بل إعطاء درس تطبيقي لكل بلدان المنطقة فيما تستطيع السياسة والدبلوماسية والآلة الحربية الأمريكية فعله بموافقة كل العالم أو ضد كل العالم.

3. تسويق بديل جديد عن "امبراطورية الشر" السوفياتية هو الإرهاب العابر للقارات الذي يشتبه في وجوده في كل مكان غير موالٍ لواشنطن، وتصنيف الدول وفق محورين أحدهما للشر والآخر للخير أي حليف أو تابع أو غير مزعج، حسبما تراه هيئة المخابرات (CIA) ومراكز الدراسات

المتخصصة والعاملة معها. واستخدام مبادئ الحرية والديموقراطية حسبما تتطلبه خططها السياسية للانتشار والتموقع الاستراتيجي في العالم كله، وفي المنطقة العربية التي كانت وما زالت حقل تجاربها المفضل (كوباي).

أصبحت الديموقراطية في الفعل الأمريكي، وليس في الديباجات الخطابية، أشبه بعجينة الأطفال (Pate à modeler) تتلهى بها وتلهي بها الدولة العظمى الكثير من بلاد العالم بما فيها روسيا والصين، كما تشاء ولا تعبأ بالملاحظات المحتشمة من الحلفاء وحتى من كبار ساستها الملتزمين بالانضباط والحق الأعلى للدولة (La raison détat)، مثلما حدث للرئيس الأسبق جيمي كارتر الذي شهد بديموقراطية الانتخابات الفلسطينية التي أدت إلى تشديد العقاب على الشعب الذي انتخب ديموقراطيا سواء لصالح حماس أم ضدها.

4. صاحب ذلك الاختراق والإضعاف والتدجين الشامل موجة من اتهام الإسلام عقيدة وتراثا بالإرهاب واللاحضارة وتعالت أصوات تزعم أن بذور الاستبدادية والتسلط موجودة في النص القرآني وأن الإسلام هو دين السيف وتاريخه كما تقول أوريانا فلاشي (Oriana Fallaci) يقطر دما.

تجنّد علماء وأوساط إعلاميّة في الغرب للقيام بحملات منظمة تشيع أن سبب تخلف العرب والمسلمين هو الدين الإسلامي والعقلية "الميثولوجية" التي تكون في نسيجها عقل معادي للحداثة وقيم الديموقراطية وحقوق المرأة والإنسان بوجه عام، وقد أحدثت تلك الحملات المنظمة ردود فعل (الفعل العربي والإسلامي معدوم في جسد بلا روح ولا إرادة)، على التُّهم الابتزازية،

فقد وجد المسلمون أنفسهم مدانين بحكم عقيدتهم حتى يثبت العكس، أي التخلي عن شعائر دينهم وتراثهم وهو اتهام لم يوجّه أبدا إلى الكوفشيوسية والهندوسية والديانة البوذية في الهند والصين والشنتوُ في اليابان، وعددهم يزيد على ثلث البشرية، أما اليهود فوْيل لمن ينتقد طقوسهم وسلوكاتهم، بل برّأتهم البابوية من دم المسيح بقرار أو فتوى أقرب إلى السياسة منها إلى الدين! ماذا تقول الدعاية الهستيرية التي تجتاح الغرب عن نمور التاميل في سيريلانكا وجيش الرب في أغندا وهي تقتل الأبرياء بالآلاف، ماذا تقول أروبا وأمريكا عن سبعة آلاف من أهالي البوسنة والهرسك المسلمين في بريتسنيسكا الشهيدة الذين قتلهم الصرب الأرثوذكس أمام بصر لكي لا نقول بتواطىء من قوات القبعات الخضر بقيادة جنرال فرنسي لم يوّجه إليه أي لوم، هل اتهمت الأرثوذكسيّة بالإرهاب؟ أو طلب أحد من أتباعها تنقية عقيدتهم من تعاليمها؟

يمكن التمييز بين ثلاثة من ردود الفعل في بلاد العرب والمسلمين:

1.4. جلد الذات أو السخرية منها في الشعر والقصّة والرواية والمسرح والسينما وتمثيليات الشخص المفرد (One man show) ونشر تقارير أحيانا بغطاء منظمات دولية مثل برنامج الأمم المتحدة للتنمية (UNDP) واليونسكو تؤكد على الهوة والفجوة التي تفصل بين المنطقة العربية والعالم المتقدم في القارات الأخرى، بما فيها إفريقيا وتقدم بالأرقام وشهادات الخبراء الفشل الذريع لمشاريع التنمية والتحديث، فهل أن تلك التقارير كلها بريئة؟

ولماذا تمت مراجعة آخرها الذي شارك فيه الأستاذ "بن بيتور" رئيس الحكومة الجزائرية الأسبق؟

2.4. الهروب إلى الآخر واستئجار حداثته التكنولوجية إلى درجة كراء مقعد بملايين الدولارات في مركبة فضاء على طريقة "كَراند دايزر" وأبطال الرقم القياسي في سجل "كَينز" لأكبر فطيرة "بيتزا" وأطول شارب إلخ...

3.4. في جزائر بداية هذه الألفية أدرك تيار سياسي مؤيد من نخبة في الحكم والمعارضة أن استمرار الصراع سيؤدي لا محالة إلى مزيد من التأزيم والتعطيل، ويقترب بالجزائر من شبح الحرب الأهلية التي لا يكون فيها المنتصر منتصرا حقا، ولا المهزوم مهزوما نهائيا، بدأت تلك المقاربة بمشروع الوئام لأخذ زمام المبادرة والحيلولة دون تثبيت (Fixation) الأزمة لدوافع إيديولوجية بحتة، أو لمصالح مكتسبة، أو ليثأر طرف من طرف آخر، أو لكل تلك الأسباب مجتمعة.

انتقل الوئام تدريجيا إلى مشروع للمصالحة يأخذ بعين الاعتبار العوامل السابقة أو ما أطلق عليه رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة التوازنات القائمة، إن المصالحة كاملة كانت أم ناقصة هي بلا شك مبادرة إيجابية بمقياس ما سبقها من تفريط وانفراط وضحايا أبرياء وتكلفة باهضة عرقلت التحديث والتقدم لأكثر من عشرية تساوي في عصرنا الراهن عشرات السنين مما تعدّون.

ارتأينا هذا الرأي والأزمة على أشدها (الأزمة المفروضة دراسة منشورة سنة 1997) وجاهرنا به في أواسط التسعينيات، والكثير من الناس إما مع، وإما ضدّ، ولا شيء غير ذلك.

من النادر أن نرجع إلى رأي أو نُذكّر بموقف، فليس ما نتبناه أو نقوله هو دائما الوحيد والأصح، ومن المهم أن ننبه إلى أن التفكير الحر والرأي المستقل لا يحتاج إلى دليل مثل شتم النظام جملة وتفصيلا والتنديد بما فعل ولم يفعل، والظهور بصورة الشهيد، فذلك من صبيانيات المراهقين الديموقراطيين في العالم الثالث والتي تدفع البعض أحيانا إلى التنكر بأزياء المتسوليّن والبؤساء (miserabilisme).

5. جاء ردّ الفعل على حملات الغرب ضد الإسلام أيضا في صورة ملتقيات وندوات ومؤتمرات الحوار الإسلامي الأوروبي الأمريكي، تجمعات تعقد هنا وهناك من أجل حوار الحضارات واللقاء بين الثقافات، وفي كل جولة من رحلات الصيف والشتاء ينتهي الكلام بكلام فترسل هيئات وبلدان عربية وإسلامية مبعوثين لتبييض وجه الإسلام والتبرؤ من الأصوليين ومن والاهم، ولا يسأل أحد لماذا لا تلهث الصين مثلا حول حوار حضارات وثقافات ولا يجد الغرب سوى مظاهرات ساحة " تيان آن مِنْ " للتهجم عليها؟ هل لأنها أخذت بذكاء وعزيمة أفضل ما عند الغرب وطوّرت أفضل ما عندها من تراث يمتد على ستّة آلاف عام وراء سورها العظيم؟

بمقارنة حالنا اليوم بما كان عليه حالنا في الأمس البعيد، ومقارنته بما وصل إليه غيرنا في ربع القرن الأخير يمكن أن نعاين الخيبة السابعة.

تبدأ الاجتماعات في البيت الأبيض بالصلوات
(في الصورة الرئيس بوش وكبار مساعديه – يناير 2003)

15. المعضلة وشفرة الحّل

لا جدوى من التعميمات الانفعالية، فبين النخب المفكرة والسياسية الغربية رجال ونساء لا يقبلون أطروحات الصراع وتفسير وضعية التخلف بالدين والتراث، وهم أول من يعرف أن الإدارة الأمريكية الحالية تبدأ كل اجتماعاتها المهمّة وغير المهمة بالصلوات والخشوع أمام الصليب (الصورة المرفقة للرئيس بوش الصغير ومعاونيه).

لا يحمل أولئك الساسة والمفكرون الأحرار (على قلّتهم) أي حقد على الإسلام وإن انتقدوا المسلمين ولا يبيعون ضمائرهم في سوق النخاسة الصهيونية المُتنفذّة ولا يتلقون صكوكا مثقلة بالدولارات مقابل شهادات الزور، إنهم شرف الغرب الأوروبي الأمريكي نفسه، عندما توضع العلاقات بين شرفاء عالم المسلمين وشرفاء عالم المسيحيين في ميزان الحق والعدل والحرية.

نشير عرضا إلى أن الخطاب الثقافي والسياسي الشائع في المنطقة كلها يستعمل نفس المصطلحات التي وضعتها القوى الأجنبية فهي تستعمل مصطلحات جيوسياسية، (شرق أوسط، وأدنى... بمقياس دول المركز أي غرب أروبا) ومفاهيم إيديولوجية تَنسب بلدان المنطقة إلى العقيدة الدينية السائدة فيها فتقول: المسلمين والإسلاميين (Islamistes) والإسلاموية (Islamisme)، ونكرر نحن معها نفس المفاهيم الإيديولوجية السابقة، ومن النادر أن تَنسب شعوبا ومفكرين أو كتابا أو ساسة من أقطار تلك البلدان الأجنبية إلى العقيدة السائدة فيها فتقول مثلا المسيحيين في الأمريكيتين (شمال–جنوب القارة) أو المسيحيين الأوروبيين أو نصنّفهم حسب عقيدتهم أو مذهبهم كاثوليك (ما يشبه السنّة عند المسلمين) وبروتستانت... وأرثوذوكس...ولا نسمع أو نقرأ وصف شعوب أمريكا اللاتينية بالمسيحيين الكاثوليك وشعوب جنوب شرقي آسيا بالبوذيين أو البراهميين، وشعوب شمال أروبا بالمسيحيين البروتستانت.

لم يتردد الرئيس بوش في وصف ما حدث في 11 سبتمبر بأنه حرب صليبية (CRUSADE)، وأطلق مؤخرا وصف الفاشية على الإسلام.

المسلمون اليوم أغلبهم يخاف سطوة وجبروت العم سام وحلفه الأطلسي الذي امتد إلى البلطيق، فأي إسلام يخافه فرعون العالم المعاصر؟! هل أنّ مقولة رائد الإصلاحيين، جمال الدين الأفغاني لا تزال صادقة إلى اليوم، فقد لاحظ في بلاد المشرق مسلمين بلا إسلام، وشاهد في بريطانيا إسلاما بلا مسلمين: أي رجالا ونساء شبابا وشيوخا يعملون ويتقنون ما يعملون بنظام دقيق يحترم الوقت وحريّة المواطن، ولذلك فإن ذلك المواطن

يحبّ وطنه ويسعى لمجده ليكون عن استحقاق بريطانيا العظمى فعليا، وليس لفظيا على طريقة "أحكم فأنت الواحد القهار"؟!

متى تبدأ النهضة؟ وهل للنهضة بداية تحسب بالتوقيت الموحّد (غرينتش)؟ هل النهضة عملية تدرُّجيّة (Processus) أم طفرة تنطلق من المركز نحو الأطراف؟ أين هو هذا المركز؟ أليس هو روحانية الإسلام التي تُهذّب حيوانيّة الإنسان، وبيان القرآن وحثّه على فهم الكون وظواهره واستثمار ما فيه وتوزيعه بالحقّ والعدل والإحسان؟.

يبدو لنا على أغلب الظن أن للنهضة بابا هو العقل، وأن للعقل مفتاحا يمسك به الساسة والمفكرون، وبينهم المجتمع الذي يشترك مع نخبه في جني الثمار أو يدفع فاتورة التخلف ومضاعفاته.

نحن نتمسك على أي حال ببصيص من الأمل يرفض نظريات الحتمية والمصير المزري المفروض سلفا، وخاصة إذا رجعنا إلى القرآن وبيانه وحثّه على فهم الكون ونظامه، ووضعنا معادلة الفيلسوف فوكو في ترتيبها الصحيح:

علم–قوة–ثروة (Savoir-pouvoir-avoir)

في المسافة القصيرة نظريا والشاسعة عمليا بين المثقف السياسي والسياسي المثقف، بين الدولة والمجتمع، بين العقل والروح، في تلك المسافة توجد الشفرة (Code) التي تسمح بفتح الباب.